خلائق تنقصنا

لاسماعيل مظهر

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

[قرآن كريم]

قد يكون من الأشياء التي أهملها جميع الذين تكلموا في الاصلاح الاجتماعي، نقد الأسس الاخلاقية التي يقوم عليها نظامنا الاجتماعي. ذلك بأن الذين تناولوا موضوع الاصلاح الاجتماعي في مصر لم ينظروا في وجوه ذلك الاصلاح على اعتبار ان مختلف تلك الوجوه انما هي مظاهر لجوهر يكمن من ورائها ومجلى لأصل واحد إليه تعود. فكما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط انما هو صورة مكبرة من ذلك الشبح المكان في العدسة، كذلك نظامنا الاجتماعية التي حاول اصلاحه، انما هي مظاهر لعنصر او أصل واحد ينحصر في ضعف الأسس الاخلاقية التي تختفي وراء نظمنا الاجتماعية. وكما أنك لا تستطيع بحال ان تغير شيئاً من تفاصيل ذلك الشبح الذي ينعكس من العدسة على الحائط إلا اذا استطعت ان تغير تفاصيل ذلك الشبح في داخل العدسة، كذلك أرى ان الاصلاح الاجتماعي في مصر لن يكون له كبير فائدة الا اذا تناول أولاً وقبل كل شيء الأسس الاخلاقية التي هي أشبه بالشبح الذي تنعكس فيه نظمنا الاجتماعية، اذا ما انعكس على صفحة الحياة.

***

خذ مثلاً نظامنا السياسي. فقد نشكو من مظاهر فيه ونحاول ان نعلل أسباب هذه المظاهر بضعف النظام الحزبي، ونسى العامل الاخلاقي. وقد نصرخ الصرخات العاليات من سوء حال التعليم في المدارس او الجامعة ونحاول ان نصلح التعليم في أدواره باصلاح في البرامج او تعديل في المواد، ونسى العامل الاخلاقي. ونشكو من ان دولاب الحكومة لا يدور لا بعدد من الموظفين زائد عن الحاجة ونحاول ان نعالج هذا النقص إما بالاقلال من الموظفين وإما بخفض

مرتبتهم ، ثم ننسى العامل الاخلاقي . وهكذا اذا نظرت في كل ما يمسنا على الشكوى مما نقول انه في حاجة الى اصلاح اجتماعي ، فانك تجد أن أنظارنا قد اتجهت الى الأسباب الظاهرة دون الأسباب الخفية ، وتلي أننا قد مضينا نبحث في الاصلاح الاجتماعي عن الأعراض محاولين اصلاحها فتخفق ، لأننا لم نحاول اصلاح الجوهر الذي يتمثل في ماهيته تلك الأعراض. فاذا لم نحاول اصلاح الجوهر كان مثلنا كمثل من يحاول أن يعدل الظل المرسوم عن عود أعوج. أما اذا استقام العود فلا بد إذن من أن يستقيم الظل

***

أما اذا اعتقدنا ان الاصلاح الاجتماعي لا يزيد عن أنه صرخة يطلقها في نفوسنا وعلى ألسنتنا شعورنا بالنقص وأننا نبقى المكان ، كان ذلك وحده دليلاً على ان نفوسنا بدأت تتحرك وأن أرواحنا بدأت تستيقظ . غير ان الصرخة الحالية التي نصرخها مخلصين بضرورة الاصلاح الاجتماعي سوف تذهب مع الريح اذا نحن لم نواجه نقائصنا بخلق جديد يكون فيه من القوة والصراحة والحزم ما يمكننا من معالجة مشاكلنا الاجتماعية بما يلزم لعلاجها من وسائل حقيقية . أما اذا ظلت عدد تلك النقائص تقيمنا وتقعد مظاهرها مشهراً ، وأنين لكل منها العلاج الذي يمليه علينا الفكر او يوحيه الينا الخيال ، من غير أن نفكر مرة فيما ينقصنا من الأخلاق التي تكفل لنا بلوغ غايتها ورياضة النفس بها ، لتحقيق ذلك الاصلاح المنشود . فاننا ولاشك سوف نخفق فيما نحاول من اصلاح اجتماعي ، زاد شعورنا بالحاجة اليه تمام الأحوال العالمية التي نكتنفنا في هذا الوقت الدقيق

***

أما اذا أردنا ان نعدد الخلائق التي ننقصنا والتي يجب علينا ان نتسلح بها لكي نصلح اصلاحاً اجتماعياً ثابتاً فان الأمر كما قلنا من قبل يتطلب أن نبحث عن الصراحة التي أشرنا حتى اليوم في اكثر مقالاتنا . حتى نجد سبيلاً ان نحس بعض النواحي بأي نقد او اشارة ، وقد نخشى ان لم نعترف من نقائص صائحة من طوائف الأمة أو طبقة من طبقاتها حذر أن يثير فينا شيء من نقائصنا عاصفة من السخرية الفارغة يكون من تأثيرها تكدير حالة الاستقرار التي تنشدها ادارة الأمن العام مثلاً . وذلك إن وجدت الكاتب ذا الجرأة الذي يتناول مثل تلك الاشياء بالنقد فانك قد لا تجد الصحيفة التي تنشر ما يكتب . هذا مثل بدا لنا على أن العجز عن الاصلاح الاجتماعي ليس راجعاً الى جهلنا موضع العلة ولا صفة العلاج وانما يدلك على أن هنالك خلائق تنقصنا كالصراحة والجرأة وضبط النفس والحزم في معالجة مختلف الموضوعات

والمشاكل التي تشغلنا . وهذه الخلائق لا ينبغي أن تقصر على الناقد وحده بل ينبغي أن تكون في الناشر وفي المصلح وفي اعضاء الطائفة أو الطبقة المنقودة وبخاصة في الرجال القائمين على المؤسسات التي هي العمد الأولية لصرح البناء الاجتماعي . ذلك بأن التعاون على الاصلاح الاجتماعي لن يتحقق الاَّ بوسيلة واحدة هي ألاَّ تقر من الحقائق بل نواجهها ، وألاَّ نكبش عن البحث وراء الحقائق اذا جبناها . ينبغي أن يشعر كل فرد منَّا شعوراً ثابتاً قويًّا بأن نقائص المجتمع انما هي نقائص فيه بالذات وان المجتمع اذا كملت فطنه واتسقت أحواله وكانت أترب الى المثل العليا فذلك دليل على قربه هو من الكمال وتدرجه نحو المثل الأعلى من النظام الانساني . فخليقة التضامن على الاصلاح الاجتماعي ينبغي أن تقوم على شعور الفرد بأنهُ جزء لا يتجزأ من المجتمع ، وشعور الجماعات بأن الأفراد وحدات لها منها تكوُّن وبصلاحها تصلح وبفسادها تفسد . ثم إذا اشتد شعور الفردية في الأفراد وقابله من جانب الجماعات شعور بأنها فوق الفرد ، فذلك هو التفكك الاجتماعي بعينه . وتلك حالة تشعر بأنها شديدة الوطأة على النفس في العهد من كل محاولة حاولناها في الاصلاح الاجتماعي .

* * *

وليس ينقصني الدليل على صحة ما أقرر هنا . وانما استمد الدليل من مشاعري وأنا بصدد كتابة هذه الأسطر . فإني أشعر اني اكتب بتحفظ ، وأشعر أني أميل الى أن أمس الموضوع مسًّا رفيقاً عاطفاً فيه بعض التلطف ، وأشعر أن هنالك قوات تكتنفني أخشى أن تغضب أو أن تثور ، وأشعر بأن جماعات قد تقف مني موقف العداء ان مسستها بنقد ، وأشعر بأن أفراداً قد يزورون في ما أصيح من نقد انشائاً على حق لهم موهوم . أما اذا اردنا أن نصلح اصلاحاً اجتماعيًّا صحيحاً فعلينا أن نزور أفراداً وجماعات وطوائف وطبقات ، بالكثير من الشجاعة وبالكثير من حرية الرأي وسط النفس ، وان نشعر بأن الاصلاح الاجتماعي لن يتأتى لنا الاَّ بالتعاون الوثيق بين مفكرين وأهل السلطة منا ، وان الناقد لا ينقد ابتغاء الاصلاح ، وان الرأي ينبغي ان يوزن بما فيه من قيمة ذاتية لا بما نقائله من قيمة في المجتمع ، فقد ينطق الصغير بالحكمة وقد ينطق الكبير بفائل الرأي ، وان ننقد جميعاً وفي طليعتنا النقاد والمفكرون ان الكبر على أهل الكبر صدقة يتصدق بها عليهم لوجه الله وابتغاء الاصلاح ليرعوي أهل الكبر منا عن كبريائهم ، وليعلموا ان في هذه الأمة رجالاً أحرار الفكر مستقلي الرأي يعملون للأمة وللمستقبل الأمة

وما اقصد بالخليقة هنا الاَّ مفردات الخلق ووحداته . فاذا اعتبرنا الخُلُق كلاًّ ، كانت

الخلائق وحدات ذلك الكل . وما كان لنا أن نمدّد النقائص التي نشهدها في أخلاقنا ونبحث كل منها ونتدبر ما كان لها من الآثار السيئة في نهضتنا وفي قضائنا الاجتماعي ، وإنما نحاول في هذه الفقرة أن نتناول بعض النواحي التي كان لتلك النقائص أكبر الأثر فيها . وإنّ نتيجة واحدة من نقائصنا إنّ نحن ذكرناها وأردنا أن نمدّد آثارها في مجتمعنا ، لوجدنا أن أثرها قد يمتد ويتشعب إمتداداً قد يصل الى غايات بعيدة نصية ، حتى ليخيل اليك أن تلك النتيجة بذاتها هي السبب فيما نشعر من تخلخل في كياننا . فاذا قلنا مثلاً أن الصراحة تنقصنا ، وأنها لا تنقص أصحاب المناصب الكبرى لا غير وإنما تنقص الرجال الذين هم بسبيل تحملهم مسرح الى الصراحة ليقوموا بواجبهم للمجتمع كاملاً ، كما ذلك أن يكون أصلاً تتشعب فروعه الى أبعد أغوار حياتنا الاجتماعية . وإنما أريد بهذا البحث أن أتناول بعض النواحي التي نشعر بأن نقائصنا الخلقية كانت السبب المباشر في صدنا عن أن نصل الى الثقة في أسباب الاصلاح الاجتماعي

ويقتضي تبادر الى بعض الباحثين أن الاصلاح الاجتماعي إنما يقصد به إصلاح الفروع لا الاصول ، وهو أمر كثيراً واحداً أكثر نظرة الى الأصول ليتبين أن الأصل الذي يصدر عليه الحكم فاسد ويقتضي تبديله مثلاً ، وإنما رأينا أن كل محاولة للاصلاح من الحكم قد إقتصرت على الكلام في الفروع ، فالبرامج فروع ومواد الدراسة فروع والادارة فروع ، أما الأصل وهو الأمة فلم نتناوله شيء من الاصلاح ، ثم نحاول مثلاً إصلاح الفقر ولا نحاول إصلاح الغني ولا نظر في الفرق الشاسع الذي نراه بين الفريقين ولا نحسبنا حسب ، لتقدمنا المقصودة التي ينبغي أن تكون الأصل الأول الذي نستند اليه في إقامة أساس جديد للتعليم والتربية وهذا نشعر بأن حقيقة تنقصنا هي حقيقة الاقدام على الاصلاح بتناول الأصول وخوضها وقتالها بلا مهادنة الأمة ومزاجها أو تثويبها تثويباً دائماً واتبدل منها الصبر الجميل والتقدم الصابر وتقابلنا الدور ؟

xxx

وإني إنما ضربت المثل بالتعليم لأنه أهم ما يشغل بالنا في هذه الأيام ، ولكن ما تولك باقتصادنا وأحزابنا وصحافتنا وجمعياتنا ومؤسساتنا العملية وغير ذلك مما يقوم عليه صرح حضارتنا الاجتماعية ؟ هذه أشياء ينبغي أن نعالجها بأن تكون نقائصنا الاخلاقية ، ولا نستطيع أن نكمل نقائصنا الاجتماعية إلا بأن نفقد هذه النواحي نقداً سريعاً به نعرف أي الخلائق تنقصنا فنعمل على التكمل به ليكون الأساس الثابت لكل إصلاح نحاوله